الماهية والامتداد للأدب العربي من كتاب: دراسات في الأدب الجاهلي و أدب صدر الإسلام قضايا وظواهر للباحث: رضوان محمد حسين النجار.

د. لطيفة عبّــو

جامعة تلمسان

كلمة قالها مصطفى صادق الرافعي: « أيّها المسلم لا تنقطع من نبيّك العظيم، وعِش فيه أبدا، واجعله مثلك الأعلى وحين تذكره في كل وقت فكن كأنك بين يديه، كن كالمسلم الأول، كن دائما ابن المعجزة»[1].

تترسخ ثقافة الاعتراف في المجتمعات المتحضرة بمكافأة المساهمين في بناء ثقافتها بطرق شتّى، منها انعقاد جلسات علمية لتكريم أولئك الأعلام، وكلّ ذلك على أمل إبراز رموز ثقافية خلاّقة معطاءة لتكون قدوةً للأجيال الصاعدة، ومصدر إشعاع علمي ينير الأمة العربية والإسلامية على حدٍّ سواء. **من هذا المنطلق ارتأينا أن نساهم في هذا اللقاء العلمي الكريم لقراءة جهود وأعمال**

أستاذنا الباحث الكبير رضوان النجار، ولو بقدر بسيط لأننا لا نفيه حقّه في زمن محدد بساعات محدودة، في مقابل ما بذلته هذه الشخصية العلمية الفذّة في العطاء والنتاج العلمي، إضافة إلى الرسالة النبيلة التي أدّاها على حقٍّ واستحقاق، وهي رسالة التدريس والتعليم في الوسط الجامعي، حيث تخرّج على يديه جمع غفيرٌ من الأساتذة والدكاترة وأنا واحدة منهم.

لقد تجلّى لي من الاطلاع على صفحات كتاب "دراسات في الأدب الجاهلي وأدب صدر الإسلام قضايا وظواهر" أنّ صلة الباحث بالأدب العربي عامة، والجاهلي وأدب صدر الإسلام خاصة، وليدة ماض تليد، أعتقد أنّها كانت من أيام الدرس، وهي الخيط الأول الذي وصله بهذا الفن حين راقت له القصائد الشعرية العمودية دون غيرها من المحفوظات الشعرية، وامتدّ هذا الإعجاب ليطول إلى الدفاع عن أصل الأدب الجاهلي والوقوف بالمرصاد لكلّ من يشكك في وجوده، ويقول بانعدامه، في هذا الشأن يقول الباحث: « يرى فريق من الباحثين أن العصر الأدبي القديم يبقى مستمرا ما دام هناك لون من ألوانه فيما بعده من عصور أدبيته..»[2] فالباحث لا يشير إلى مَنْ هو هذا الفريق الذي يرى هذه الرؤية، وذلك لحاجة في نفس يعقوب كما يقول المثل العربي، لأن هذا الفريق مخطئ عند الباحث، وهو لا يوافق هذه الرؤية معلّلا الظاهرة الاستمرارية للعصر الأدبي القديم تعني عنده انعدام نشأة عصر جديد، وفي المقابل يقدم الباحث رؤيته من زاوية أخرى وهي انعدام فن أو لون أو صورة من

العصر الأدبي السابق، ينبئ بنهاية ذلك العصر، أو وجود صورة أو فن أو حالة أدبية جديدة في عصر من العصور يشير إلى بداية عصر أدبي جديد...[3]

ومن أجل الحجّة نرى **أستاذنا** يفصل القول في قضية نهاية عصر وبداية عصر جديد بتقديمه معطيات البداية والنهاية للأدب في اجمل تصوير وتمثيل، بآليات بلاغية رائعة يشعرك بأنّ الباحث يتمتع بقدرة إبداعية خلاّقة لما يصوّر لنا الأدب كالنهر، يقول أحدهم: «... وهل العلم إلاّ نظارة ذات عدسات بيضاء تريك الأشياء كما هي... واما الأدب فما هو إلا نظارة ذات عدسات ملونة تريك الدنيا باللون الذي تحب وتختار...»[4]

يواصل **أستاذنا** الكلام عن الاستمرارية واثرها على العصور الأدبية وتداخلها بقوله: إن ذلك لا يعد عيبا، ويضرب لذلك مثل تداخل العصور السياسية ايضا، مثل قيام الدولة العباسية على انقاض دولة بني أمية.

بعد هذا الطرح العام لقضية البداية والنهاية للعصر الجاهلي وادبه، يخلص الباحث إلى خطة علمية اكاديمية ممنهجة حول الآراء التي كثرت في تقسيم العصور الأدبية. فكتب الباحث محاور ثلاثة، عنوان المحور الأول: العرب القدامى. وجاء المحور الثاني تحت عنوان: المستشرقون. وكان المحور الثالث والأخير، وجعله بعنوان: العرب المحدثون.

يقول الدكتور الباحث في محور العرب القدامى وهو المحور الأول: «إن فكرة النشأة لم تكن فكرة حديثة وإنما هي قديمة ومتأصلة عند علماء العرب

القدامى، مستدلا بالمصنفات والمؤلفات العديدة التي كتبت في هذا الموضوع، ويبدأها بابن سلام الجمحي المتوفى سنة 131هـ حين قسم كتابه الموسوم بطبقات فحول الشعراء إلى أقسام منها طبقة للشعراء الجاهليين ثم الإسلاميين وهكذا...»[5]

وفي الشأن ذاته يقول أحد المؤرخين للعصر الجاهلي: «... العرب يقسمون شعراءهم بادئ الأمر إلى مرحلة (عصر) عاشوا فيها (أو فيه) قبل الحدث الحاسم في تاريخهم ظهور النبي محمد صلى الله عليه وسلم... وكان الأوائل الجاهليون وهم شعراء فترة جهل وثني (الجاهلية) واللاحقون هم الإسلاميون شعراء الإسلام..»[6]

وعن فكرة الكتابة في تقسيم العصور حديثة أم قديمة، نرى الباحث يستشهد بقول المستشرق الدكتور هيوارث دن في كتابه: "الأدب العربي وتاريخه في العصر الجاهلي" يقول: « قد يتسرب إلى الذهن أنّ هذا العلم حديث النشأة، وأنّه من انتزاع هذا العصر، وليس ذلك كذلك»[7] مواصلة في السياق نفسه يذكر **أستاذنا** مجموعة عناوين للكتب التي تؤرخ للأدب العربي الجاهلي ولشعراء هذه الفترة، ونذكر مثالاً أو مثالين أو أكثر: كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة، الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني، الكامل لأبي العبّاس محمد بن يزيد المبرد... والقائمة طويلة، وأيضا نراه ينبئنا إلى أمرٍ مهم ورد في تلك المصنفات، حيث لم يكتف أصحابها بتحديد العصر بالزمن بمعنى بدايته ونهايته وخاصة الجاهلي، بل

نراهم يميزون بين شاعر جاهلي وآخر إسلامي وثالث شاعر جاهلي «أدرك الإسلام وهذا الصنف من الشعراء أو الخطباء أطلقوا عليهم مصطلح المخضرمين...»[8]

المحور الثاني: المستشرقون

خلال قراءتنا لهذا المحور المهم في قضية وجود العصر الجاهلي وبالتالي الأدب العربي الجاهلي، نعرف أن الباحث له اطلاع كبير عن اعتناء الحركة الاستشراقية بالتراث الإسلامي العربي وحضارته، حيث فاقت كل الجهود التي قدمها الاستشراق لاختراق آفاق الشرق الفكرية والحضارية واكتشاف أسباب قوته ومقوماته. يبدأ الباحث حديثه الأول عاما بذكره لأعلام مستشرقين اهتموا بدراسة الآداب العربية وتاريخها حيث يقول:« كان المستشرقون النمساويون سباقين إلى دراسة الآداب العربية وتاريخها»[9] ومباشرة يتحدث الباحث عن المستشرق النمساوي يوسف هامر بورجستال بقوله: « هو أول من قام بمحاولة لدراسة تاريخ الأدب العربي في كتابه المكون من سبعة أجزاء، والذي بدأ ينشره في فينا سنة 1850 وانتهى منه في سنة 1856....»[10]، الباحث في هذا القسم يأخذ المنهج الاستقرائي كآلية في الخوض في نصوص وآراء هؤلاء المستشرقين أمثال بروكلمان، كارل نالينو ريجيس بلاشير، وهيوارت دن. وكلنا يعلم أن للمستشرقين جزءً من الفضل في إبراز الحضارة العربية الإسلامية فهذا أحد هؤلاء يقول: « ثمة سحر لا يوصف يحيط بشعر العرب المبكر، فإذا أنعمت

النظر في الإبداعات الرائعة لعبقريتهم مع هذه القصائد القديمة فإنك تحيا كما كانت حياة جديدة، فالمدن والحدائق والقرى وأثر الحقول أيضا تترك بعيدا عن النظرة، وتدخل في مناخ الصحراء الحار وتطرح الشباك واعراف المجتمع المستقر جانبا وتتحول مع الشاعر عبر الفضاء المتغير للطبيعة بكل نقائها وبساطتها وحريتها»[11]

إنه الإقرار بأدب جميل يترك آثارا جميلة في نفس وشعور كل من يقرأه حتى وإن كان القارئ غير عربي، كما يثير لنا الباحث قضية الشك في الشعر الجاهلي الذي أثاره أيضا الأديب طه حسين وكل ذلك لأن هذا الأدب العربي له صلة بكتاب الإسلام وهو القرآن الكريم، ولتحمّل لغة العرب أسرار الإعجاز القرآني، وأيضا لأهمية هذا الأدب في دراسة الشخصية العربية، من هنا ركزت الحركات الإستشراقية جهودها على الأدب العربي قصد الوصول إلى معرفة اتجاهاته الأدبية، وسعيا منها إلى كشف المؤثرات التي تركها هذا الأدب في أداب أروبا المختلفة، بجانب ما تركتها آداب اليونان والرومان من جانب آخر»[12]

يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه في هذا الشعر: « كان الشعر علم قوم لم يكن له علم أصحَّ منه»[13]

المحور الثالث والأخير: العلماء العرب المحدثون

يتبع **أستاذنا** الخطة ذاتها في هذا المحور أيضا حيث نجده يكتب مجموعة من العناوين لمؤلفات المؤلفين من عرب محدثين أخذوا بالدرس والتحليل لتاريخ

الأدب العربي، وبهذا العمل يقدم الباحث في كل محور قائمة بيليوغرافية للقارئ والباحث، ثم بعد ذلك يختار الباحث أسماء لكتاب عرب محدثين أمثال الأستاذ مصطفى صادق الرافعي وجورجي زيدان والدكتور طه حسين.

والشيء الجيد في تحليل **أستاذنا** لهذه المحاور نلمسه في أنه يختار تلك الأعلام البارزة في بحث تاريخ الأدب العربي من نفس الفترة الزمنية وذلك لتكون المقارنة والمقاربة صائبة أكثر دقة. **وبهذا الصنيع يكون أستاذنا الباحث رضوان النجار قد أبرز الخطوط المميزة لمنهج علمي خاص في تأريخ للأدب العربي عامة والأدب الجاهلي، وأدب صدر الإسلام خاصة.** ترى هل وجدت أمة عنيت بآدابها عناية العرب بشعرهم، وهل يشك أحد في أهمية الشعر العربي باعتباره المدخل الرئيسي لفهم الروح العربية، ذلك الشعر الذي جعلوه ديوان علومهم وأخبارهم وشاهد صوابهم وخطئهم، وأصلا يرجعون إليه في الكثير من علومهم وحكمهم كما يقول ابن خلدون[14].

وختاما نرى في هذا الكتاب الجليل باحثا إسلاميا مخلصا يحاول أن يرصد كل الموجات الاستشراقية وتأثيرها على بلادنا العربية سلبا في العقيدة والسياسة والأدب والنقد والتاريخ.

و نشعر أن أستاذنا الباحث يقول لنا: إن هذه الموجات الحاملة على تراثنا الأدبي العربي هدفها الهجوم على العقل العربي واللغة العربية والتراث وأكثر على العقيدة الإسلامية... وإن كثرين من الأدباء العرب جروا وراء تلك المزاعم

الباطلة التي ردّدها المستشرقون، فاتهموا العقلية العربية، أمثال توفيق الحكيم وحسين فوزي وسلامة مرسي، واسماعيل مظهر والشاعر الشابي الذي كتب عن الأدب العربي أنّه أدب جامد ميت لا سمو فيه، وأمثال علي أحمد سعيد الذي رفض اسمه العربي الإسلامي و سمى نفسه أدونيس الذي قال عن العرب: « إنهم المقلدون غير مبدعين، وإنهم لم يقدموا شيئا يذكر للإنسانية، وإن التاريخ لا يحفظ لهم نمطا إبداعيا واحدا أحدثوه في أي مرحلة... وينسى المدعو أدونيس أنّ الإسلام ذاته هو أكبر تحول إبداعي في تاريخ الإنسانية وبالمثال رأينا طه حسين يتأثر بمنهج مارجليوث في حكمه على الشعر الجاهلي، ويثير الشكوك حول أصالة الشعر الجاهلي»[13].

إلى أستاذنا الباحث الأستاذ الفاضل رضوان النجار، يقف التاريخ ليسجد لك سجدة إجلال وتقدير، ونقف أمامك على حياء... ونقول لك شكرا يا سيدي.

الإحالات

1. وحي القلم، مصطفى صادق الرافعي، ج2، ص11، راجعه درويش الجويدي، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان.
2. دراسات في الأدب الجاهلي وادب صدر الإسلام، قضايا وظواهر، رضوان النجار، ص29، ط2، 1429، 2009، تلمسان، الجزائر.
3. نفسه ص29.
4. حروف أمام النار، أنس ابراهيم الدغيم، قدم له محمد راتب النابلسي وميسر سهيل، ص12، دار الغوثاني، دمشق، سوريا.
5. ينظر: دراسات في الأدب الجاهلي ، ص32.
6. الشعر القديم، ايفالدقاجر، ترجمة وتعليق سعيد حسن بحيرى، ص38، الطبعة الثانية، 2010م، مؤسسة المختار، القاهرة، مصر.
7. دراسات في الدب الجاهلي ، رضوان النجار، ص33.
8. ينظر: المرجع السابق، ص 33 و 44.
9. دراسات في الأدب الجاهلي وادب صدر الإسلام قضايا وظواهر، رضوان النجار، ص 47.
10. المرجع السابق، ص ن.
11. الشعر العربي القديم، ايفالدقاجز، ترجمة سعيد حسن بحيري، ص27.

12. فلسفة الاستشراق واثرها في الأدب المعاصر، دكتوراه ن الأحمد سمايلوفنتش، ص479، سنة 1974، جامعة القاهرة.

13. طبقات فحول الشعراء محمد بن سلام الجمحي، شرحه محمد شاكر، ج1، ص24، المدني، القاهرة، مصر.

14. مقدمة ابن خلدون، تحقيق علي عبد الواحد وافي، ص3/ 1300، ط1، دار نهضة مصر، 1977، القاهرة.

15. مأخوذة من مقدمة دكتور مصطفى محمود من كتاب فلسفة الإشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر، أحمد سما يلوقتش.

مراجع البحث:

1- حروف أمام النار، أنس إبراهيم، دار الغوثاني، دمشق ـــ سوريا.

2- دراسات في الأدب الجاهلي وأدب صدر الإسلام قضايا وظواهر. رضوان محمد حسين النجار، ط2، 1429هـ ـــ 2009م، تلمسان ـــ الجزائر.

3- الشعر القديم، إيفالد فاجر، ترجمة وتعليق سعيد حسن، ط2، 2010، مؤسسة المختار، القاهرة ـــ مصر.

4- طبقات فحول الشعراء، محمد بن سلام الجمحي، تحقيق وشرح محمود محمد شاكر، القاهرة ـــ مصر.

5- فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر، أحمد سمايلو، 1974، القاهرة ـــ مصر.

6- مقدمة ابن خلدون، ابن خلدون، تحقيق عبد واحد وافي، ط1، دار نهضة مصر، 1977، القاهرة ـــ مصر.

7- وحي القلم، مصطفى صادق الرافعي، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان.